أ.م.د. يوسف سامي فرحان

*انتفاضة القاهرة الأولى ٢١ تشرين الاول ١٧٩٨

١- أسبابها ومجرياتها :

كان لانتفاضة القاهرة الأولى عدة أسباب منها اثر تحطيم الاسطول الفرنسي في معركة ابي القير اذ جعلت الفرنسيين اشبه بالأسرى في مصر مما أدى إلى قيام الفرنسيين بالاعتماد على مصر في تموين الجيش الفرنسي اذ فرضوا على المصريين الكثير من الضرائب ومصادرة أملاك النساء مما أدى إلى تذمر المصريين. ، واستنهاض ضد الفرنسيين لهدمهم الجوامع والمآذن لاجل توسيع الطرق لسير العربات، وإلقاء القبض على حاكم الاسكندرية محمد كريم وإعدامه بتهمة معارضة الاحتلال الفرنسي.

فتجمع عدد كبير من الناس حول جامع الازهر في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨ أو سرعان ما تشكلت لجان المقاومة وانضم إليها المشايخ والعلماء والأئمة، واستقر رأيهم أن يذهبوا إلى بيت القاضي التركي ليصحبهم لمقابلة نابليون ليطلبوا منه إلغاء نظام الضرائب الجديدة، ورافقهم القاضي، لكن سرعان ما ان ذهب معهم حتى تبين له عظيم التجمهر وخطورة الحالة فقفل راجعًا الى بيته بعد ان انهال الناس ضربًا بالعصى والحجارة وازداد هيجان الشعب، واجتمع بالازهر خمسة عشر الف من الثوار، وما هي إلا ساعات حتى انتشرت الانتفاضة في كل أنحاء القاهرة حيث تقدموا إلى المخافر الفرنسية وقتلوا بعض حراسها واشتبكوا مع الجنود الفرنسيين وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسي، وفي اطراف القاهرة هاجم الفلاحون العسكر الفرنسيين والدوريات المسلحة وقطعوا خطوط الاتصال الفرنسية وقتلوا عددًا من الضباط والموظفين وجباة الضرائب الفرنسيين.

قام نابليون باستعمال الشدة مع الثوار وذلك بالتدابير القمعية انتقامًا من مشايخ قادة الازهر فأمر بقطع ست من رؤوس الذين كانت معهم الاسلحة وإغراق جميع المساجين وإلقاء جثثهم في النيل، ونهبوا اكثر البيوت حول الجامع الازهر ونهبوا الكتب التي في الخزائن يعتقدون ان بها اموالاً.

وقام نابليون بهدم عدد كبير من المساجد بحجة تحصين القاهرة وإحاطتها بعدد كبير من الحصون حتى يتمكن من السيطرة عليها اذ ما قام المصريين بانتفاضة أخرى، وكان من نتائج هذه الانتفاضة اعتقاد نابليون ان احتلاله لمصر مرفوض من قبل المصريين واستحالة التعايش مهعم، وزرع بذور التفرقة والطائفية بين المسلمين والاقباط لتشتيت الوحدة الداخلية لكن المصريين ردوا على ذلك بأعلانهم التمسك بالمقاومة ضد المحتل.

*انتفاضة القاهرة الثانية ٢٠ اذار ١٨٠٠

انتهز المصريون فرصة خروج كليبر بأغلب قواته وانشغاله بمحاربة العثمانيين فأعلنوا ثورتهم وحاصروا بقية القوات الفرنسية داخل القاهرة وهاجموا مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي، وكان للعلماء والتجار دور كبير في قيادة هذه الثورة، وبعد ان انتهى كليبر من مطاردة العثمانيين داخل القاهرة التي احاطت بجنوده وظل يحاصرها اكثر من شهر مما ترتب عليه سوء الاحوال وتدهورها، وقامت المدافع الفرنسية بضرب الثورة في الحماليه وبولاق التي قضوا على رجالها واحرقوا بيوتها، وشن الفرنسيون هجوماً عاماً على احياء القاهرة وفرض غرامة حربية كبيرة على المصريين مقدارها ٦٠٠٠٠٠٠ فرنك وهو مبلغ ضخم في ظل الاحوال الاقتصادية السيئة للبلاد، وقام كليبر بعدة اصلاحات لجيشه، لكنه اغتيل من طرف طالب سوري ازهري اسمه سليمان الحلبي في حديقة قصره بطعنه بخنجر في قلبه.

*جلاء الحملة الفرنسية من مصر ونتائجها

تولي جاك فرانسوا مينو القيادة للجيش الفرنسي بعد مقتل كليبر، الذي كان يرغب في ابقاء الاحتلال الفرنسي في البلاد ولم يغفل الانجليز عن العمل على اخراج الفرنسيين من مصر، وشددت الحملة الانجليزية العثمانية الحصار على القاهرة وقد قلت المؤونه والذخيرة فأضطر قائدها الجنرال بليار إلى اجراء المفاوضات لتسليم المدينة وجلاء الفرنسيين عنها، ثم توجه الانجليز إلى الاسكندرية وحاصروها واضطر مينو إلى توقيع اتفاق سلم الاسكندرية عام ١٨٠١ ونص على جلاء الفرنسيين خلال ١٠ ايام من تاريخ التوقيع وان يسلم الفرنسيين جميع سفنهم وينتقلون على سفن الحلفاء ومعهم اسلحتهم وامتعتهم و١٠ مدافع فقط، وكانت

هذه الشروط هي نفسها التي حصل عليها كليبر في معاهدة العريش وتم خروجهم من مصر.

*نتائج الحملة الفرنسية

ان الحملة الفرنسية على مصر قد فشلت في تحقيق اهدافها العسكرية، ولكنها نبهت انظار العالم الغربي لمصر وموقعها الاستراتيجي، واظهرت مصر بكونها منطقة ذات اهمية كبيرة للقوى العظمى وايقنت بريطانيا بأنه من الضروري ان لا تترك مصر بأي ثمن للفرنسيين، وكان المصريون في سبات طويل عن العالم المتمدن ولا يعرفون شيئاً عن المدينة الاوربية فأيقظتهم من سباتهم، وكان للحملة على مصر آثار إدارية أهمها ارتفاع معنويات المصريين، واكتشفوا انهم بأستطاعتهم ان يسيروا انفسهم بأنفسهم وان يطلعوا على ما وصل إليه الفرنسيين من تقدم لاسيما في مجال النظام والادارة وكان لانشاء مجلس الديوان الاثر في ذلك فالديوان حدث جديد في تاريخ المصريين لأنه اعتمد على نظم المجالس الشوريه واساليب الحكم الحديث.

كما وضع الفرنسيون مشروعات للاصلاح الاقتصادي وهو جمع الضرائب المتعددة على الفلاح في ضريبه واحدة والتي عرفت بأسم المشروع العظيم وكان المشروع يهدف إلى منع الملتزمين من تحصيل الاموال ولكن المشروع لم ينجح بسبب ظروف الحملة الفرنسية السيئة، وايضاً حاول بونابرت ان يبعث النشاط في التجارة الخارجية ففكر في حفر قناة السويس ولكنه عدل عن ذلك لاعتقاد علماء الحملة الفرنسية بتفاوت مستوى المياه بين البحرين الاحمر والمتوسط، ولفت نظر انجلترا إلى اهمية طريق مصر، وفي النهاية تم حفر قناة السويس في عام ١٨٦٩.

وقام نابليون بإنشاء مجمع للعلوم والفنون ومن أهم اختصاصاته نشر العلوم والمعارف في مصر والقيام بالبحوث والدراسات وإصدار الكتب، وأول عمل قام به المجمع هو كشف اثر قناة السويس، وحضر ١٧٥ عالماً إلى مصر، واهتموا بالكشف عن الآثار القديمة وعثروا على حجر رشيد وهو حجر من الجرانيت الاسود به نقوشاً مكتوباً باللغة الهيروغليفية، كما

وضعوا خرائط دقيقة ومفصلة لمصر، ووضعوا كتاب وصف مصر الذي ضم تاريخ مصر وحضارتها واحوالها الاقتصادية والجغرافية، وكذلك احضروا المطابع إلى مصر واصدروا جريدتين العشار المصري، وبريد مصر وبهذا اشتملت الحملة على مصر بالعلوم والآداب والفنون والطباعة والصحافة وظهور تيار إصلاحي.

*محمد علي باشا وإصلاحاته

ولد محمد علي باشا سنة ١٧٦٩ بمقدونيا وهو من أصل الباني، اشتغل بالتجارة ثم عين ضابط في الجيش الالباني العثماني ودخل مصر مع الجيش العثماني الذي جاء لطرد الفرنسيين من مصر إثر حملة نابليون، وتمكن بما اثبته من دراية عسكرية أن يصبح قائد الجيش في مصر.

نجح محمد علي في استثمار السخط الشعبي وتقرب من زعماء الشعب، ونظراً لطول الفترة الزمنية لحكم محمد علي التي كانت من ١٨٠٥ إلى غاية ١٨٤٨ فقد شهدت سنوات حكمه انجازات مهمة تمثلت في تصديه للحملة الانجليزية وكذلك تصفية المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة بالقاهرة في ١٨١١ وغيرها، فقد مهدت الطريق لقيامه بعدت إصلاحات شملت جميع المجالات، باشر محمد علي في جعل مصر دولة حديثة فأصبحت مصر دولة تفوق الدولة العثمانية بتنظيمها ونظمها وتطورها وتقدمها العلمي.

- **الإصلاحات الإدارية** : تمثلت التطورات التي ادخلها في إدارة الاقاليم ظهور لقبين جديدين هما : لقب مدير اي رئيس المديرية الذي كان مسؤولاً عن تنفيذ اوامر الباشا وإصدار توجيهات فيما يتعلق ببذر المحاصيل وريها، ولقب ثاني تمثل في رئيس المركز وكان يضطلع بالمسؤولية الكاملة عن كل الاعمال في القرى الواقعة تحت إشرافه، وكذلك تطورت الإدارة في عهده فعمل على تقسيم البلاد إلى ٧ مديريات، والمديريات قسمت إلى مراكز واقسام وقرى ويرأس المأمور المركز والناظر القسم والشيخ القرية، ويقوم المدير بتنفيذ اوامر الباشا ويشرف على الري واعماله، والمأمور يراقب الزراعة وجميع الاموال والمحاسبة وإرسال الجنود للخدمة العسكرية.

واقام محمد علي عدة مجالس منها الديوان العالي وهو مجلس الحكومة، والمجلس العالي، ومجلس المشاورة الملكي وكذلك اقام عدة دواوين منها ديوان الخديوي (وزارة الداخلية)، ديوان الايرادات (وزارة المالية)، ديوان الجهادية (وزارة الحرب)، ديوان البحر (وزارة البحرية)، ديوان المدارس (وزارة التعليم والاشغال العمومية)، ديوان التجارة المصرية والامور الافرنكية (وزارة التجارة والشؤون الخارجية)، ديوان الفاريقات (وزارة الصناعة).

- **الإصلاحات العسكرية :**

١-**الجيش** : ادرك محمد علي ان اهم سند للدولة هو الجيش القوي، لهذا اهتم بتطوير جيشه على التمط الاوربي، واستقبل بعثه عسكرية بقيادة الفرنسي بوابيه لتدريب جيشه، واستعان بضابط فرنسي برتبة إسمه اوكتاف جوزيف انتلر لتنظيم جيشه على نمط الجيش الفرنسي، وجند محمد علي السودانيين، وكذلك اصدر مرسوم بتجنيد الفلاحين من سكان مصر في الجيش، وكان هذا النظام الجديد له دلالات ونتائج مستقبلية بظهور جيش ونخبه عسكرية مصرية، ونظراً لتطور الجيش أدى إلى نجاحه في عدة معارك خاضها المصريون مع محمد علي منها فتح السودان عام ١٨٢٠، وانتصاره في معركة الموره.

٢- **الاسطول** : لم يكن بمصر منشآت بحرية حربية لهذا اصدر محمد علي امراً بإنشاء ١٥ سفينة بالبحر الاحمر، وشيد بالسويس مباني لصناعة السفن، وضم الاسطوال الجديد خمسين قطعة بحرية تحمل على متنها ٨٠٠ ضابط و١٠٠٠ مقاتل وجعل على رأسها مهندساً فرنسياً يدعى «سريزي» ، كما ارسل البعثات إلى اوربا لتعلم الفنون البحرية والعسكرية وفي سنة ١٨٣١ نزلت بالبحر اول سفينة من الاسطول الجديد، وانشأ اسطول في البحر المتوسط، ووصل عدد قطع الاسطول عام ١٨٢٩ إلى ٢٩ وحدة و٩٩٢ مدفعاً و١٠ الاف بحار واستورد محمد علي الاخشاب لاسطوله من آسيا الصغرى ثم من اوربا وسوريا، واستلزم بناء هذه القوة البحرية ثروة وامكانات كبيرة.

- **المدارس** : اقيمت اول مدرسة حربية في مصر هي مدرسة اسوان بقيادة ضابط فرنسي، كما انشأ مدارس مختلفة منها مدرسة البيادة ومدرسة الفرسان ومدرسة المدفعية، وانشأ مدرسة المشاة في دمياط وانشأ مدرسة لتخريج الضباط، وكذلك انشأ كلية عسكرية في عام ١٨٢٦، وانشأ مدرسة اركان الحرب للدراسات العليا، وكان بها بعض المدرسين

الاجانب ومدة الدراسة ثلاث سنوات، وانشأ مدرسة المدفعية وكانت تدرس فيها الرياضيات والكيمياء والرسم واللغة الاجنبية والعربية والتركية إضافة إلى فن المدفعية والمساحة.

- **الإصلاحات الاقتصادية** : شجع الزراعة وطور نظام الري وادخل العديد من المحاصيل منها زراعة القطن واشجار التوت وزراعة الزيتون، كما اهتمت الحكومة بالنهوض بالصناعات القديمة في مصر كالنسيج والحصير وغيرها واقيمت مصانع لغزل القطن ونسجه، واسس معامل السكر، وعمل على تصريف حاصلات البلاد بنفسه، كما جعل اكثر التصدير والاستيراد بحري عن طريق الحكومة وحدها، وكان القطن اهم صادرات مصر ويليه القمح.

وجعل محمد علي الدولة هي المالكة لجميع الاراضي، فصادر اراضي المماليك، واستولى على اراضي الاوقاف وألغى سنة ١٨٠٩ م نظام الالتزام، ثم مسح الاراضي ابتداء من سنة ١٨١٣م، ثم أعاد توزيعها على الفلاحين فأعطى كل خمسة افدنه لفلاح لاستثمارها حسب توجيهات الدولة على ان تدفع الضرائب للدولة مباشرتاً واذا عجز الفلاح عن استغلال ارضه أو عجز عن دفع الضرائب، فللدولة الحق في استرجاعها، وحددت الدولة نوع المحاصيل فتأخذ الحكومة حصتها كضرائب ثم تشتري الباقي بأسعار تقررها الدولة، وهي غالباً ما تكون دون قيمتها الحقيقية ثم تبيعها للتجار الاجانب.

إن الغاء نظام الالتزام وتقسيم الاراضي يعد انقلاباً اقتصادياً واجتماعياً في مصر فقد حرر الفلاحين من الالتزام، وأدى إلى ظهور طبقة الملاك الذين قدر لهم ان يقوموا بدور اساس في التاريخ الحديث.

- **البعثات العلمية** : احس محمد علي ان إنشاء المدارس وحده لا يفي بالغرض لذلك اتجهت فكرته إلى ارسال مجموعة من الشبان إلى اوربا ليتخصصوا في العلوم التي ليس فيها من المصريين اخصائيون، فأخذ يرسل التلاميذ إلى مختلف الدول الاوربية ولكن ميله كان اكثر إلى فرنسا، وأول بلاد بعث إليها بعوثاً علمية هي إيطاليا سنة ١٨١٣، وكان التلاميذ يتلقون دروس الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها، وارسل كذلك بعثات إلى فرنسا والنمسا وإلى انجلترا.

- **الترجمة** : كانت السيطرة الاولى للترجمة في اوائل محمد علي للغة الايطالية ثم للغة الفرنسية، وكذلك كانت الترجمة إلى اللغتين التركية والعربية، وترجمت بعض الكتب الخاصة في التاريخ والسير وشؤون الحكم إلى اللغة التركية استجابة لرغبة محمد علي، اما بقية الكتب في الفنون الاخرى فقد ترجمت إلى العربية وانشأ محمد علي دار للطباعة في بولاق والتي بدأت بطبع الكتب باللغات العربية والفرنسية والتركية، وصدرت في عهده اول جريدة مصرية هي الوقائع المصرية وتعد اول جريدة رسمية تصدر في الوطن العربي وهكذا حققت مصر في عهد محمد علي تقدماً بالغاً في جميع الميادين ولهذا يعد محمد علي هو مؤسس مصر الحديثة.

*المصادر

١- عبد العزيز محمد الشناوي، صور من دور الازهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي في اواخر القرن الثامن عشر، دار الكتب، جمهورية مصر العربية، ١٩٧١.

٢- احمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة، دمشق، (١٩٨٥ - ١٩٨٦).

٣- محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، جامعة الاسكندرية، مصر، ١٩٩٨.

٤- محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الازهر، ط ٣ ، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٠.

٥- هشام سوادي هاشم، تاريخ العرب الحديث (١٥١٦ - ١٩١٨) من الفتح العثماني إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر، الاردن، ٢٠١٠.

٦- عصام عبد الفتاح، اهم واخطر وأشهر الاغتيالات السياسية في التاريخ، دار الكنوز، الاسكندرية، ٢٠١٣.

٧- عصام محمد شبادو، المقاومة الشعبية المصرية والغزو البريطاني، دار التضامن، لبنان، ١٩٩٢.

٨- نمير طه ياسين، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، ٢٠١٠.
٩- عمر عبد العزيز عمر وآخرون، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦ - ١٩٦٦)، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٤.
١٠- الياس الايوبي، محمد علي سيرته اعماله وآثاره، دار الهلال، مصر، ١٩٢٣.
١١- محمد الدقن، تاريخ مصر الحديث، مكتبة وصفي، ١٩٧٩.
١٢- جميل بيضون وآخرون، تاريخ العرب الحديث، دار الامل، ١٩٩٢.